تعريف بالكتاب

نشرت رسائل مدام « سيڤينى » بعد وفاتها بنحو ثلاثين سنة ، وكان نشرها على التتابع مجموعة بعد مجموعة فى عدة طبعات ، فلم تكن مجموعتها الأولى تزيد على نيف وثلاثين رسالة ولم يزل هواتها والمعجبون بها ينقلونها عن مصادرها المتفرقة حتى بلغت مجموعتها الكاملة أكثر من ألف وخمسمائة رسالة ، معظمها مكتوب الى بنتها بعد زواجها واقامتها الطويلة فى الريف ، وبعضها مكتوب الى نخبة من العلية المثقفين والمثقفات، أشهرهم النبيل روشفكول صاحب الحكم والكلمات النادرة المعروف .

يقول بريزون وهو يفتتح الحوار التالى أنها رسائل متفرقة ولكنها فى جملتها كتاب من كتب الأدب الواقعى له حظه الوافر من الخيال والابتكار .

وتصف مس سرجيو كاتبة الرسائل فتذكر بين صفاتها البارزة ثلاث صفات لا يحتاج الكاتب الممتاز الى مزيد عليها ليرتفع الى القمة فى بابه وهى توقد الذهن وخفة الروح ، وأصالة التفكير .

ويكاد نقاد الأدب الغربى يجمعون على مكانة هذه الأديبة المتطوعة بين الأدباء المتطوعين والمتفرغين للكتابة ، فهى بغير خلاف كبير بينهم ـ سيدة كتاب الرسائل وكاتباتها فى عصور الأدب الأوربية الحديثة غير مستثنى من ذلك لابروير فى فرنسا ولاشستر فيلد فى انجلترا ، بل غير مستثنى منه بلينى الصغير فى الأدب اللاتينى القديم .

وهذه منزلة عالية فى أدب الرسائل البليغة لم تدركها الكاتبة بغير مؤهلاتها التى لا غنى عنها ، وينبغى أن نقول أنها استوفت جميع مؤهلاتها

من حياتها الشخصية ، ومن تعليمها الرفيع ، ومن دواعى عصرها فى القرن السابع عشر على التخصيص .

ان شعور الأمومة هو « مصدر الوحى » الصادق فى رسائل مدام سيفينى من مبعثها الأول فى وجدانها ، وشعور الأمومة عاطفة مطبوعة فى نفوس الأمهات جمعاء ولكن هذه الأم قد استفادته من تجارب حياتها كما استفادته من غرائز طبعها ، لأنها فقدت أبويها منذ طفولتها الباكرة ، وتزوجت فى شبابها فلم تسعد فى زواجها بغير محبة الأم لبنتها اليتيمة ، لأن زوجها المتلاف لم يلبث أن قتل فى مبارزة عنيفة بعد أن كاد يقضى على ثروتها وثروته ، وكان لها ابن ظريف ولكنه متلاف كأبيه وعالة على أمه ، فاجتمعت شواغل حياتها كلها فى عطفها المفرط على بنتها المفارقة ، لمعزتها عندها ولاغترابها عنها ، وسرى هذا العطف المفرط الى الرسالة التى تكتبها لأنها لم تكن كلمات على ورق الرسالة بل كانت « شخصا » حيا بقلبه الخافق وصدره المعانق وحديثه الدافق ، وكانت تتدفق بقوة هذه العاطفة فتغنيها بلاغة « السجية » عن بلاغة التأمل والروية ، وربما صح وصف الكاتبة لرسائلها حين قالت أنها كانت تترك القلم « يركض وعنانه على عنقه » ... ولكن أمومتها « المفرطة » هى التى عوضت رسائلها أجمل العوض عن صقل الصناعة وأناقة التهذيب والمراجعة فتمت لها البلاغة التى تناسبها ، واستحقت ببلاغتها هذه أن ترتفع الى الذروة فى هذا الفن الجميل بين كتاب الرسائل وكاتباتها .

ولا يسبقنى الى الخاطر أن هذه « الأمومة المفرطة » أستغرقت حياة هذه الحسناء الأديبة فلم تدع لها شعورا بأحد من الناس غير شعورها ببنتها الغائبة عنها ... كلا ، فان الأرملة الحسناء - كما قالت صديقتها مدام لافاييت (قد خلقت لمسرات الحياة وخلقت مسرات الحياة لها) وكانت تحب حياتها وتحب شبابها وتشفق من اقتراب الشيخوخة اليها كما يتبين القارىء من بعض رسائلها ، ولكن شعور الأمومة قد كان بالنسبة اليها كأنه الحصن الذى اعتصمت بقداسته من دوافع العواطف

وغواياتها فكانت تمرح وتمزح وتعطى الزينة حقهـا كما تعطى الجمـال حقه ، ولكنها عاشت فى معترك الفتنة بين قصور الملك وقصور النبلاء من نظرائها ونظيراتها دون أن تحوم حولها شبهة أو تعرف لها علاقة مريبة كأنما كانت عواطفها تتدفق وتضطرب لتنصرف كلها بعد ذلك الى مصرفها الوحيد فى رسائلها الى بنتها ، فلا جرم تتمثل فى هذه الرسائل كل حياتها وكل ما كانت تهتم به فى تلك الحياة . ولم يكن فى عصرها شىء لم يشغل اهتمامها المتيقظ شغلان الذهن المتوقد والنظرة الثابتة والذوق المهذب والطبع العطوف .

* * *

هذه العاطفة التى استوعبت حياة صاحبتها هى ينبوع من ينابيـع الأدب « الرسائلى » لم يرزقه غيرها من الأمهات والآباء المشـهورات أو المشهورين بهـذا الفن الجميل ، ويوشك أن يكون فيه تفسـير كاف لرجحانها عليهم باتفاق النقاد الغربيين . ولكنها كانت قد استعدت لهذا الفن بجميع مؤهلاته كما تقدم ، فلم تكن هذه المؤهلات « الحيوية » أعظم شأنا فى ترجيحها على نظيراتهـا ونظرائها من مؤهلاتها الأخرى ؛ ومنهـا مؤهلات الثقافة ومؤهلات العصر ومؤهلات الموضوع .

فقد كانت مدام دى سيڤينى تحسن قراءة اللاتينية والايطاليـة والاسبانية فضلا عن لغتها الفرنسية التى تعلمتها بالدرس والمحادثة مع أبلغ المتكلمين بها فى زمانها ، وكانت تقرأ باللاتينية كوينتليان وتاستيس وأغسطين ، وتقرأ بالايطالية والاسبانية دواوين شعرائهـا المبرزين ، وانتفعت بذوقها فى المطالعة كما انتفعت بدراستها واتقان لغاتها ، ويفهم من تعليقاتها على مطالعاتها أنها كانت تؤثر البساطة المطبوعة على الفخامة المصطنعة فى أدب كل لغة عرفتها ، ولهذا كانت تفضل كورنيل على راسين .

أما أثر العصر فى توجيه ملكتهـا الأدبية فمرجعه الى نهضـة القرن السابع عشر فى البلاد الفرنسية على عهد الملك الشمس لويس الرابع عشر . ففى هذا العصر نشأت آداب المحادثة وآداب المراسلة بين العلية

من النبـــلاء والنبيلات ، وانتشرت الأندية التى يتنافس سـيداتها فى اجتذاب روادها من أعلام الأدب والفكر وعشاق البلاغة والفصاحة وقام فى كل اقليم من أقاليم الريف حول قلاع النبلاء والنبيلات بلاط مهذب ينظر الى بلاط باريس ويقتدى به فى مظاهر الجاه والمعرفة . وراح سكان العاصمة وسكان القلاع بالأقاليم يتسابقون الى تجويد صناعة الحديث وصناعة المراسلة والرواية عن الكتاب والمتحدثين ، وربمـا كانت قراءة الرسالة وقراءة الجواب مادة المحادثة والمناظرة فى مجالس الأنديةالتى اشتهرت باسم الصالونات ، ويرجع الى هذه الفترة شيوع الرسائل التى تكتب ـ أصلا ـ لبسط الآراء الفلسفية والتعليقات الاجتماعية على مثال رسـائل ڤولتير ، وقد سبقه اليها نخبة من أئمة الأدباء فى القرن السابع عشر ، مع الفارق فى التعمق والتفصيل .

ومزية الموضوع سبب آخر من أسباب ترجيح هذه الكاتبة على كتاب الرسائل وكاتباتها فى عصرها . فليس كل ما كتب فى ذلك العصر من رسائل البلغاء صالحا لترجمة العصر كله كما ترجمته رسائل مدام دى سيڤينى ، ولو لم تميزها جودة الكتابة بهـذه المزية لكانت الكثرة وحدها كافيـة لترجيحها فى تصوير العصر على جميع معاصريها ومعاصراتها . لأنهـا كتبت ألف رسالة وخمسمائة خلال ثلاثين سنة ، وضمنت كل رسالة منها كل ما ترويه المرأة الذكية من ثرثرة المجتمع وأحاديثه بين صفوة أهله علما ودراية ورياسة واطلاعا على حقائق الأحوال العامة فى فرنسا وغير فرنسا، وضمنتها مع هذه الأخبار العـامة تفصيلات شتى عن قصص الأسرة وزوارها ومعارفها وعما يرويه هؤلاء لجلسائهم من شئون البلاد وشئون السادة والأتباع من أبنائها ، فليست الرسائل التى تكتب على هذا النحو بريدا « بيتيا » بين أم وبنتها ، ولكنها كما قال بريزون فى فاتحة الحوار « كتاب » محيط بأحوال فرنسا وأحوال العالم المتصلة بها خـلال القرن السابع عشر . ولعله العصر الذى نعرف فيه عن بوادر الثورة الفرنسية ودواعيها مالا نعرفه من أحوال عصر آخر ، ونعرف ذلك على غير قصد

للدعوة الى جانب مع الثورة أو عليها ، بل على غير علم من الكاتبة بمصير هذه البوادر الى عواقبها ، فيزيدنا ذلك وثوقا بصدق الرواية وصحة العلاقة بين مقدمات الثورة ونتائجها .

* * *

ويقول بريزون بحق ، ان الكاتبة « انسانية » تهمنا من رسائلها صبغتها الانسانية ولا تهمنا دقتها ، فيجيبه جيرار قائلا اننا نقرؤها لهذه الصبغة قبل أن نقرأها لصبغتها التاريخية ، «لأنها تضفى على أخبارها تلك المسحة الانسانية فتجعلنا ندرك تفاصيل الحياة الصغيرة فى تلك الأيام » ولم يخطىء جيرار حين قال ان الكاتبة كانت لها نظرة فاحصة الى التفصيلات ولكنها« لم تكن تدرك ما يدور حولها من الناحية الاجتماعية» ويصيب بريزون حين يجيبه مستدركا أنها كانت تدرك الطبيعة الانسانية بين أبناء النخبة الممتازة « اذ كانوا على الرغم من كل شىء ذوات بشرية » .

وقد نرى أن وصف الرسائل بالصبغة الانسانية يجىء فى موضعه من كلمات لأدباء الحوار ، فانهم أحرى أن يبعدوا عن هذه الأم العطوف مظنة التقصير فى فهم الناس على تفاوت طبقاتهم بين أبناء عصرها ، لأنها لم تفهم أولئك « الناس » جميعا كما فهمت أبناء طبقتها ، ويعود هذا التقصير الى انقطاع الصلة قبل أن يعود الى انقطاع العاطفة أو الى قصورها عن تلبية دواعى الانصاف والرحمة ، ولسنا ندرى أين يكون عطفها لو أنها عاشت اليوم بعد تلك الثورات الاجتماعية التى تلاحقت من أوائل القرن الثانى عشر الى أيامنا هذه بعد أواسط القرن العشرين ولكنها عاشت فى زمن لم تتخذ فيه شكوى المجتمع صبغة الحرب فى سبيل الحقوق الانسانية المشتركة بين جميع الطبقات ، فلم تفهم من طبيعة الانسان غير صورتها القريبة اليها ولكنها فهمتها « صورة انسانية » كيفما كانت الحال .

عباس محمود العقاد